

ابن خلدون والتأصيل لعلم المنهج

*Ibn Khaldun and Rooting of the science of methodology*بلحضري بلوفة^{*1}

1 جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)، bloufa.belhadri@univ-mosta.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/20 تاريخ القبول: 2025 /03/13 تاريخ النشر: 2025/04/12

ملخص:

لقد أخذ العلماء المسلمون عبر أضاير التاريخ الإسلامي بزمام المبادرة في شتى مجالات العلوم، فكان لهذه المبادرة دور رائد في بناء الصرح العلمي والحضاري للإنسانية؛ لاسيما في مرحلة عرفت فيها تخوم أوروبا في كثير من محطاتها وردّهاتها التاريخية بدءا من العصر الوسيط وتاريخ الغرب المسيحي واليهودي وعصر ما قبل النهضة حالة أطلق عليها اسم عصر الظلمات والتخلف.

وإنني إذ أروم من خلال هذه الورقة ذات الطابع النظري؛ تسليط الضوء على ما جادت به قريحة أحد العلماء المسلمين في خضم المدرسة الإسلامية على شاكلة العلامة بن خلدون بوصفه نموذجا أبان عن عمق مساهمته في علوم المناهج بحقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

كلمات مفتاحية: المدرسة الإسلامية؛ العلماء المسلمون؛ المدونات الإسلامية؛ ابن خلدون؛ العلوم الاجتماعية.

Abstract:

Throughout the archives of Islamic history, Muslim scholars have taken the initiative in various fields of science. They played a pioneering role in building the scientific and civilizational edifice of humanity, especially during a period in which the borders of Europe, in many of its historical stations and halls, starting from the Middle Ages, the history of the Christian and Jewish West, and the pre-Renaissance era, experienced a state called the Age of Darkness and Backwardness.

Through this theoretical paper; I aim to shed light on the contribution of a muslim scholar within the Islamic school, such as Ibn Khaldun, as a model that demonstrated the depth of his contribution to methodological sciences in the field of humanities and social sciences.

Keywords: Islamic school; Muslim scholars; Islamic blogs; Ibn Khaldun; social sciences.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إذا كان غرض البحث العلمي قائم في أحد مطالبه على دراسة مختلف الظواهر الاجتماعية والإنسانية ومحاولة إيجاد حلول لمشكلاتها وتقديم توصيات حولها؛ فإن هذه المحاولات لن تكون ذات طابع علمي إلا إذا استشرفت الموضوعية والتنظيم في الجهد والتزمت أيما التزام بمنهجية علمية يمكن أن تقود في الأخير إلى ما تروم إليه أية دراسة علمية. كذلك كان دأب كثير من علماء المدرسة الإسلامية في تبني مبدأي الموضوعية والتنظيم، ولا أدلّ على ذلك؛ محاولاتهم البحث في مختلف المجالات العلمية لاسيما في مرحلة عرفت فيها أوروبا إبان العصر الوسيط وتاريخ الغرب المسيحي- اليهودي وعصر ما قبل النهضة حالة أطلق عليها اسم "عصر الظلمات".

في ظل الحديث عن مدى أخذ العلماء المسلمين بزمام المبادرة في الصرح العلمي والحضاري للإنسانية؛ فإن الحديث عن المدرسة الإسلامية في نموذج العلامة بن خلدون وعمق مساهمته في علوم المناهج بحقل العلوم الإنسانية والاجتماعية يعد من الأهمية بمكان لإعادة ضبط عقارب بوصلة تاريخ المعرفة نحو إحدى الاتجاهات الأساسية التي كان لأصحابها قصب السبق في النظر والتمحيص في كثير من القضايا المعرفية لاسيما فيما تعلق بعلوم المنهج.

وفي خضم تفصيل تراكيب هذا الموضوع؛ إرتأيت أن تستوعب هذه الورقة في مستهلها تقديمًا نتعرف من خلاله عن المدرسة الإسلامية ثم التدرج لعرض نبذة تاريخية حولها؛ ومن ثم الحديث عن أحد روادها البارزين على شاكلة "بن خلدون"، ذلك لأن الحديث عن جميع رواد المدرسة لن يتسع في غضون ورقة على شاكلة هذا المقال، ثم حديث عن التصور المنهجي الذي تميزت به المدرسة أو بالأحرى أهم المناهج التي تكلم حولها بن خلدون لاسيما المنهج التاريخي والمنهج التجريبي، ليكون الحديث في نهاية المطاف عن جزئية العصبية والدولة كجزء لا يتجزأ عن منظومة النظريات الخلدونية.

2. التعريف بالمدرسة الإسلامية:

هي مدرسة روادها الفلاسفة والعلماء المسلمون الذين تفتنوا إلى الأحداث والوقائع الاجتماعية والطبيعية وساهموا في تأريخها وتصنيفها. فمنهم من تنبه إلى تلكم الظواهر والوقائع وغاص في استكشاف كيفية حدوثها، ومنهم من غاص في التقصي عن عللها وأثارها. وإن هذه الاجتهادات لتقدم لنا دفعا متجددا لإبداء حكم نُوفي فيه العلماء المسلمين حقهم. كيف لا؟ وقد أبانت مساهماتهم عن مدى تفتنهم لقضايا

الإنسانية والتجمع البشري من جهة؛ وقدرتهم على رصد وجرد ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها¹.

وإذا كان لا بد من استدلال نستهل به للإشارة إلى البصمة التي وضعها العلماء المسلمون في خضم المشهد العلمي وهم يأخذون بزمام المبادرة في شتى مجالات العلوم؛ فلا يسعنا في هذا المقام إلا أن نستدل بما جادت به قريحة العلامة بن خلدون من خلال مدونته الكبرى كتاب: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والموسومة باسم "المقدمة".

يتجه كثير من المنظرين؛ إلى أن العلامة بن خلدون هو أول مفكر اجتماعي يكون قد استخدم المنهج العلمي² في استقراء الوقائع الاجتماعية وصياغة قوانين تَقْدُم الأمم وانهيائها، إذ لم يكتف العلامة في نظرهم بعرض الوقائع من حيث مظهر الأحداث التاريخية، وإنما حاول الغوص ضمن ما أسماه بـ «فن التاريخ» إلى البحث في علل حدوث كل ما له علاقة بالظواهر والنظم الاجتماعية والقوانين التي المتحكمة فيها.

3. نبذة تاريخية عن المدرسة الإسلامية:

لقد دعا الإسلام إلى تمجيد العقل وتحصيل المعرفة والاجتهاد والتنقيب في كل العلوم النافعة بما يحقق مصلحة الإنسان الدنيوية والأخروية. ولقد فهم علماء السلف من المسلمين هذه الرسالة فهما يقينيا، فحرصوا على ملازمة العلم وسخّروا جهدهم وأنفُسهم في سبيل أن يكون لهم حضور في مشهد تاريخ الأمم قاطبة والأمة الإسلامية بشكل أخص. فظهر علماء أفذاذ لاسيما في الفترة الموصوفة بالفترة الذهبيّة من تاريخ الحضارة الإسلامية التي امتدت إلى غاية القرن الثامن عشر، وظهرت بالموازاة عشرات المدارس والمكتبات التي بلغت تخوم البلاد الإسلامية.

ولا أدل على ما سبق ذكره؛ تلك الشواهد التاريخية -بحسب المصادر - التي أحصت تأسيس سبعون مكتبة ببلاد الأندلس والتي تنصدها "مكتبة الخلفاء" التي كانت تستوعب إبان ذلك الوقت ما يربو عن ستمائة ألف مجلد.

بالمقابل؛ لقد رصد لنا التاريخ حضور كوكبة من المفكرين والعلماء المسلمين الذين سجلوا حضورهم في تأسيس علوم جديدة وأبدعوا فيها بحيث سيظل التاريخ يحتفظ بأسمائهم وستظل ذاكرة التراث الإسلامي تشيد بما قدموه من أعمال جليلة في مختلف العلوم، ومن هؤلاء:

- "جابر بن حيان" الذي برع في علم الكيمياء.

- "الطَّبْرِي"؛ هذا الأخير الذي رصد لنا في كتابه "الحاوي" علوم الطب في نحو عشرين مجلدا.

- "ابن سينا":

(القرن الحادي عشر ميلادي)، وقد خلد التاريخ اسمه على إثر الدراسات العديدة التي خلفها من بعده على شاكلة "دراسات في علم طبقات الأرض" إلى جانب مؤلفات ذات قيمة علمية على شاكلة كتاب "القانون".

- "ابن الهيثم":

برز خلال القرن العاشر ميلادي؛ وتحصي له مدونة المعرفة كتابا تحت مسمى "علم البصريّات"³. إلى جانب مؤلفات عدة.

- "الخوارزمي أبو عبد الله محمد بن موسى" الذي استخدم المنهج الاستدلالي والاستنباطي في غمرة أبحاثه خلال عهد الخليفة العبّاسي المأمون، حيث اعتبره المؤرّخون أحد الأقطاب التي برعت في علم الرياضيات والجبر. ومن أشهر مؤلفات "الخوارزمي"؛ فقد رصد لنا التاريخ كتابه "الزّيج الأوّل"، كتاب "الزّيج الثّاني" إلى جانب مختصر من كتاب الجبر والمقابلة⁴.

* فخر الدين الرازي:

برز خلال القرن التاسع ميلادي وقد برع في علم الرياضيات والفيزياء وعلوم كثيرة. ومن أشهر كتبه "أسرار التنزيل وأنوار التأويل"، "أجوبة المسائل البخارية"، "الأربعين في أصول الدين"⁵ و"أجوبة المسائل البخارية" وعلم الكلام في حوالي 22 مصنفا من ضمنها كتاب "الإشارة في علم الكلام" وكتاب "الزبدة في علم الكلام" وكتاب "المحصول في علم الكلام"، وغيرها من المؤلفات⁶.

* أبو بكر محمد بن باجة:

وهو "بن الصائغ"؛ يعد أحد أبرز الفلاسفة المسلمين الذين ضلّعوا في الطب الفلك والرياضيات والآداب والموسيقى. لقد وضع منهجا للتوحد؛ وحاول من خلاله أن يبين أن الإنسان المتوحد هو العنصر الأساسي للدولة المثلى⁷. وقد خلف مدونات تصل -حسب بعض المصادر- زهاء مائة وخمسة مؤلفا نذكر منها "تدبير المتوحد".

* أبو الحسن، علاء الدين علي بن براهيم بن محمد الأنصاري:

وهو معروف باسم "ابن الشاطر". وهو عالم برع في علم الرياضيات وعلم الفلك⁸. و يعد مؤلف "أرجوزة في الكواكب" أحد أهم مؤلفاته.

* ابن طفيل القيسي:

جمع بن طفيل بين الطب والفلسفة، كما خلف زبدة معارفه في مدونات عدة؛ نذكر أحدها الموسوم بـ: "رسائل في النفس".

* أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد:

جمع بن رشد بين الفلسفة وعلوم الطب؛ وألف فيهما ما يربو عن خمسين مؤلفاً أو تزيد⁹؛ على الرغم من أن جلها قد تعرض للتلف والحرق بحسب الكثير من الروايات. ومن جملة هذه المدونات "كتاب التحصيل".

* ابن تيمية أبو العباس تقي الدين (1263-1328م):

له مؤلفات في العقيدة والمنطق أهمها "منهاج السنة"¹⁰ وكتاب "الرد على المنطقيين" إلى جانب عدد من المؤلفات¹¹.

* الرازي أبو بكر محمد بن زكريا (865-925م):

و يحصى له عدد من المؤلفات في الرياضيات واللغة العربية والفلسفة؛ ومن جملة ما يمكن عرضه من مؤلفات على سبيل المثال –لا الحصر- كتاب الجامع في الحساب وكتاب "الحاوي" إلى جانب بعض المؤلفات¹².

* ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله (980-1037م):

جمع بين الفلسفة والطب والرياضيات والفلك. من أشهر مؤلفاته الطبية بحسب ما تم رصده في كتاب "مناهج البحث عند علماء المسلمين" للكاتب خالد السعيداني؛ كتاب "القانون في الطب"، "الشفاء"، "النجاة"، "الأدوية القلبية".

* ابن النفيس علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي (1210-1288م):

برز بن النفيس خلال القرن الثالث عشر ميلادي وقد عرف على أنه مكتشف الدورة الدموية¹³. وقد خلف لنا مؤلفات في الطب والمنطق والقانون والنحو والحديث نذكر منها على سبيل المثال –لا الحصر- "الشامل في الطب".

هذا ويبدو أن قائمة أعلام المدرسة الإسلامية ترص بالمفكرين أمثال "محمد بن موسى بن شاكر" و"أحمد بن موسى بن شاكر" و"عبد الله محمد بن جابر بن سنان"، و"أبو اسحق إبراهيم بن هلال" و"أبو الحسن علي بن أحمد"، والجزائري "ابن حمزة المغربي" و"البيروني أبو الریحان محمد بن أحمد"، و"أبو حامد الغزالي" الذي ألف كتباً عدة¹⁴.

لا يزال رحم العالم الإسلامي ولآدًا للعلماء والمفكرين، ولم تتوقف قاطرة الإمداد المعرفي عند حدود العصور الوسطى ولا عند حدود الفترة التاريخية التي شهد فيها العالم الإسلامي تراخيا في الإنتاج العلمي وجمودا في العقل وبلوغ الاجترارا لأعمال علمية تكاد تكون نفسها مبلغا رهيبا بفعل ظروف متواترة شهدتها الأمة الإسلامية سواء إبان الفترة العثمانية أو الفترة المملوكية أو العصر العباسي المتأخر، ولعل هذا الكلام سيجعلنا نقف وقفة نثمن فيها عطاء كوكبة من العلماء الذين تخرجوا من رحم معاناة الأمة في كنف ظروفها الصعبة سواء في الطب أو الرياضيات أو الفيزياء أو الفلسفة أو الاجتماعيات وهلم جرا من الحقول المعرفية.

ومن أبرز العلماء الجزائريين المعاصرين؛ نذكر على سبيل المثال -لا الحصر-: عبد الحميد بن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، محمد الهاشمي التلمساني. ويضاف طبعا إلى هذه الأسماء كوكبة من العلماء المسلمين عبر تخوم المعمورة والتي يستحيل حصرها في خضم هذه الورقة. إذًا؛ إن ما تم تقديمه من نبذة موجزة عن أعلام ومفكري المسلمين؛ يعتبر غيض من فيض، ولئن دل ذلك على شيء؛ فإنما ينم عما يزخر به معين المدرسة الإسلامية من العلماء الذين أسسوا للمناهج في مختلف العلوم. ويبقى الشاهد الأكبر على ذلك، هو النموذج الذي سنقدمه ضمن رواد المدرسة الإسلامية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في خضم العنوان الموالي.

4. أهم رواد المدرسة الإسلامية:

يتعدى الحديث في خضم كوكبة رواد المدرسة الإسلامية إلى ذكر أكثر من رائد سجل حضوره في سجل تاريخ الأعلام والمفكرين المسلمين. ونحن أمام أرادة من هؤلاء العلماء والمفكرين والفلاسفة، فإنه لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نضرب مثلا حول العلامة عبد الرحمن بن خلدون كنموذج نوه به التاريخ وخلد اسمه في مفكرة العلم والمعرفة.

ولد العلامة بن خلدون في (732هـ، 1332م) بتونس. عرف بانتمائه لأسرة "معلومة بالنفوذ والجاه، فضاهها العلم والفقه، تعلم اللغة العربية على يد والده في بداية تعلمه، ولقد ساهم في صقل معارفه اللغوية والأدبية عدد من الأساتذة والشيخوخ. حفظ القرآن الكريم على القراءات السبع على يد شيخه "بن بُرَّال الأنصاري"، وأخذ الحديث على يد الشيخ "شمس الدين الوادياشي"، كما أخذ الفقه عن "عبد الله الجياني" و"أبي القاسم محمد وأبي عبد الله محمد بن عبد السلام".

عُرف العلامة بن خلدون بكثرة التنقل بين الأمصار؛ فتارة بين بلاد شمال أفريقيا حيث توجه إلى كل من بجاية وبسكرة وتيارت وتلمسان، وتارة بين بلاد المغرب والأندلس وغرناطة ومصر متدرجا في مهام القضاء ببلاط السلاطين والملوك هنالك.

يرى الباحثون أن مراحل حياة بن خلدون إنما مرت بأربعة مراحل أساسية؛ وهي على النحو

التالي¹⁵:

- مرحلة التلمذة، تونس (732-753هـ).
 - مرحلة المغامرات السياسية، المغرب والجزائر والأندلس (754-776هـ).
 - مرحلة العزلة والتأليف، قلعة ابن سلامة بالجزائر (776-780هـ).
 - مرحلة التدريس والقضاء وتنقيح مؤلفه وتتميمه، بتونس (780-784هـ) ثم القاهرة (784-808هـ).
- هذا وقد أخذت مهمة التدريس والقضاء من بن خلدون قسطا وفيرا من مسيرة حياته. فلم يلبث أن ينقطع إلى القضاء حتى عاد إلى التدوين والتأليف. فلقد همّ على كتابة "مدونات عدة، منها ما يصنف ضمن المدونات الكبرى، ومنها ما يصنف ضمن المؤلفات الصغرى. فكتب في هذه الأخيرة ما يلي:
- "لباب المحصل في أصول الدين".
 - "تقييد المنطق".
 - "كتاب في الحساب".
 - "رجز في أصول الفقه للسان الدين بن الخطيب".
 - "شرح البردة".
 - "شفاء السائل لتهديب المسائل".
- أما عن المدونات الكبرى فإن أشهرها يتجلى في الكتاب الموسوم بـ: "المقدمة".
- توفي العلامة رحمه الله بمصر عام 1406 م، وبحسب بعض المصادر أنه دفن في مقابر الصوفية بالقاهرة المصرية.

5. تصورهما المنهجي:

في معرض الحديث عن مدى مساهمة المدرسة الإسلامية في إرساء مناهج للبحث العلمي؛ لا يسعنا إلا التنويه بما قام به العلماء المسلمون قديما وحديثا من استقراء للظواهر الإنسانية والاجتماعية بكثير من العقلانية والواقعية عملا على تثبيت القواعد التصورية والتفسيرية لهذه الظواهر التي تنم في

أحد أوجهها عن تأصيل الممارسة العلمية. وإن أول ما يمكن أن نبتدئ به؛ هو ذلكم الطرح الإبيستيمولوجي الذي قدمه بن خلدون في غمرة محاولة تأصيله لعلم العمران ووضعه لقواعد علمية تؤسس لدراسة هذا العلم.

لقد أطلعنا العلامة بن خلدون في غمرة ظعنه¹⁶ وحلّه¹⁷ على المنهج الذي سيعتمد عليه في خضم "المقدمة". كما عرض لنا طائفة من المثالب التي وقع فيها أسلافه من العلماء والفلاسفة والمؤرخون؛ فتطرق إلى المآخذ والمغالطات التي وقع فيها هؤلاء أثناء جردهم ونقلهم للوقائع التاريخية التي بدت فيها أهواؤهم ونزعاتهم الذاتية واضحة. ولذلك يرى أن هنالك مناهج يجب أن تكون جديرة بالفهم والتحقيق، لعل أبرزها؛ المنهج التاريخي والمنهج التجريبي.

5.1 المنهج التاريخي:

ويعرض فيه العلامة أخطاء من سبقه من المؤرخين في بناء الحادثة التاريخية. لأنه رأى أن المؤرخين يسبغون في دراساتهم التاريخية على طريقة فاسدة لاسيما تلك التي ترجع إلى فترات النبي موسى عليه الصلاة والسلام وتيه جيوش بني إسرائيل وتيههم؛ وما زوي عن الفرس والقادسية والعرب قبل الإسلام وما بعده وإبان الخلافة الأموية والعباسية، إضافة إلى ما تداوله المؤرخون من أخبار هذه الملل بطريقة امتزجت فيها الوقائع التاريخية بالأخبار الواهية والبعيدة عن التحليل العقلاني¹⁸.

من هاهنا؛ يتأكد لنا أن التاريخ عند بن خلدون ليس مجرد نقل للأخبار أو صناعة أدبية أو وصفا رشيقا وأسلوبا أنيقا يتخلله كثير من الاستطرادات¹⁹، وإنما هو علم يتكئ على مبدأ منهجي يجب أن يتقنى فيه الباحثون والمؤرخون أثر الأحداث وتتبع تغيراتها ورصد الظواهر التاريخية واستنباط العبر والأسباب وقوانين الأحداث²⁰. مثله في ذلك مثل سائر العلوم التي تتكئ على أصول وقواعد علمية تخضع إلى علم اسمه "المنهج".

من خلال هذه الرؤية؛ فكأنني بآبن خلدون قد تمكن من استقراء ما ستكون عليه طرق التسجيل والنبش في أغوار الحدث التاريخي في خضم عصر يبعد عنه زمنيا بمئات السنين، ألا وهو العصر الحديث الذي ينساق علماؤه بدورهم خلف رؤية خلدونية في استخلاص الحقائق التاريخية وتفسيرها²¹ تفسيراً يوصل إلى فهم الآلية التي تسير عليها سنن الظواهر الإنسانية والأحداث الاجتماعية.

إن ما يسترعي انتباهنا في هذا الخضم؛ هي تلكم النظرة الخلدونية التي تحليلنا إلى قراءة متبصرة في مضمون مقاربتة النظرية حول ظاهرة الصراع بين البدو والحضارة القائمة. هذه الظاهرة التي تعد جدلية مستمرة على اختلاف الأزمنة والأمكنة، إذ أن ظاهرة الصراع بالمجتمعات العربية والآليات التي

تطبع سيرها؛ إنما هي في نظر بن خلدون مكون أساسي في حدوث التغير الاجتماعي؛ وهو ما يشير إليه في نظرية العصبية التي سيتم الحديث عنها لاحقاً.

لقد حاول بن خلدون تفسير ماضي المجتمعات وتقديم صورة تتجلى فيها الآلية التي تحكم الدولة في نشأتها ونموها وسيرها وصورته وتفككها وأفولها. وعليه فإنه ثمة ما يحقق مبدأ حتمية تغير الأحوال، فما كان لشيء أن يبقى على حاله الأول أمداً طويلاً²².

لا شك أن بن خلدون قد كانت له قراءته المتفردة التي تختلف في سياقاتها ومضمونها عن قراءات ممن سبقوه في موضوع التاريخ، فإذا كان منهج البحث في الأحوال والظواهر الاجتماعية عند سابقه قائم على منهج الوعظ والخطابة ووصف الوضع المتردي للمجتمع وإسداء النصح قصد تبين حالة هذا الوضع، فإن بعض المصادر قد قادتنا إلى أن المنهج عند بن خلدون قد تجاوز مرحلة الوصف وتقديم النصح إلى وجوب التعمق في دراسة الوضع الاجتماعي والظواهر الاجتماعية والوقائع التاريخية وفق رؤية موضوعية قائمة على القياس؛ آخذة في الحسبان مبدأ تغير الأحوال الاجتماعية، السياسية والاقتصادية بكل دولة أو مجتمع من المجتمعات، وفي ذلك دعوة لدراسة ماضي الظواهر بغية فهم الحاضر فهما موضوعيا والاحتراز للانتقادات الممكنة التي يمكن أن يسوغها المستقبل.

2.5 المنهج التجريبي:

يقوم المنهج التجريبي في نظر بن خلدون على مبدأ قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران. وحينما نلتقط إشارة هذا الكلام؛ فإن بن خلدون يود أن يوصلنا إلى فناعة مفادها أن المنهج التجريبي إنما يحمل طابعا تحليليا.

ومن الأسس التي ينبني عليها هذا المنهج من المنظور الخلدوني ما يلي:

* الاعتماد على الملاحظة المباشرة.

* تحليل الظواهر وتفسيرها بناء على منطق التعليل.

* الاعتماد على المنهج المقارن.

* دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية.

إن دراسة إفرازات الاجتماع الإنساني وما ينتج عنه أو ما يرافقه من وقائع اجتماعية مختلفة؛ إنما ينبني على ضرورة الأخذ في الحسبان لما للظواهر الطبيعية والعوامل المناخية من أثر في هندسة الظواهر الاجتماعية. ليس ذلك فحسب؛ وإنما النظر أيضا إلى مدى السرعة التي تعترى حركة التطور ومدى مساهمة هذه الحركة في التبدلات والتغيرات الجمة على مستوى تشكيلات هذه الظواهر على

المستوى المجتمعي. ومعنى ذلك كله؛ أن الظواهر الطبيعية والعوامل المناخية تحتل من الأهمية بمكان لأن تتموقع كفاعل مهم في نشوء وسيرورة مختلف الظواهر الاجتماعية وصيرورتها.

إن من بين ما يمكن أن ننوه به لصالح الرؤية الخلدونية؛ تفتتها إلى وجود حالتين مهمتين تطبع الاجتماع الإنساني بشكل عام وما ينتج عن هذا الاجتماع من إفرازات تظهر في شكل ظواهر اجتماعية بشكل أخص؛ وهاتان الحالتان هما:

أ. حالة الثبات:

ويطلق عليها العلماء المحدثون اسم "الحالة الستاتيكية".

ب. الحالة الحركية:

ويطلق عليها علماء العصر الحديث اسم "الحالة الديناميكية".

وفي مطلق الأحوال؛ فإن الرؤية الخلدونية تدعو إلى دراسة الظواهر الاجتماعية وهي في "حالة الثبات" وفي "حالة الحركية" (الستاتيكية والديناميكية) على السواء.

إن ما أعان بن خلدون على استقراء الوقائع ومختلف الظواهر واستقراء بنية المجتمع ومورفولوجيته بطريقة موضوعية؛ هو انتفاعه من حقائق التاريخ وحوادثه المعللة، واعتماده على الملاحظة المباشرة والغير المباشرة. فلقد أعانته هذه الأدوات على دراسة وكشف طبيعة الظواهر الاجتماعية ووظائفها من جهة، وفهم القوانين التي تخضع لها نظم العمران البشري من جهة أخرى.

6. نظرية العصبية والدولة:

1.6 مفهوم العصبية:

هي كلمة مشتقة من العصب، بمعنى الشد والربط. أما العصبية فلا تكاد تنفك عن كلمة "عَصَبَة، وعصبة الرجل بنوه وقرابته"²³، ولا تكاد تنفك من أن تمثل تجمعاً بشرياً ذا قوة ومنعة تربطه علاقات الدم التي تبرر "ذلك الالتحام والتماسك والتعاون والتعااض"²⁴.

2.6 أشكال العصبية:

- عصبية بالدم (الدم الصريح، الدم الخليط).

- عصبية بالنسب.

- عصبية بالجوار.

- عصبية بالاصطناع.

- عصبية بالولاء.

2.6 العصبية والدولة:

هي أحد المحاور الأساسية للأبحاث التي قام بها العلامة بن خلدون. وينظر العلامة إلى الدولة بوصفها كائن حي؛ يولد فينمو ثم يهرم فيفنى. ويكأن بن خلدون في غمرة الحديث عن الدولة يود أن يشد انتباهنا نحو تلكم الدورة العضوية التي تميز الإنسان.

يقيس بن خلدون حياة الدولة على عمر الإنسان ومراحل تطوره. فللدولة عمر كما هم الأشخاص والكائنات الحية أيضا. وما يميز هذه الحال؛ أن الدولة تراوح أعمار ثلاثة أجيال، بحيث يمثل كل جيل العمر الوسط للإنسان والمقدر بأربعين (40) سنة، ففي هذا السن يكتمل نمو الإنسان وتطوره. ومعنى ذلك أن عمر الدولة يقاس بثلاثة أجيال: $(40)+(40)+(40)$ ؛ وهو ما يعادل عمر مائة وعشرون (120) سنة بالجملة.

لقد العلامة استلهم بن خلدون هذا العدد – أي قدر العمر- وحكمته البليغة من الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾²⁵، كما يرجح أنه استقى ذلك من حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل من خلال قوله عز وجل: ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾²⁶. أما حكمة الأربعين سنة؛ ففيها أقول لجيل الأحياء ونشأة جيل تضمحل فيه صفات الجيل الذي سلفه. أما الأجيال الثلاثة وما يميزها عن بعضها فهي:

* الجيل الأول:

هو جيل البداوة الذي يتميز بقوة العصبية والشجاعة والشكيمة²⁷ والافتراس والخشونة والتحمل لما هو عليه من شظف²⁸ العيش وخلق البداوة وتوحشها، إذ ينظر إليه من باقي العصبية بالرهبنة.

* الجيل الثاني:

فيه يتحقق الملك وتؤسس الدولة وتنتقل الحياة من البداوة والخشونة إلى التمدن والرخاء ومن البداوة إلى الحضارة ومن العز والقوة إلى الذل والخضوع فتتكسر سورة العصبية²⁹ فيهم.

* الجيل الثالث:

يعتريه الخذلان؛ وعلى يده يبلغ الترف ذروته وتسقط العصبية بالكلية. وهي إيدان بهرم الدولة وتخلفها. إذ لن يكون انهيار الدولة إلا بتخلي هذا الجيل عن صبغة الخشونة وبلغا عظيما من الجبن والترف في كنف غضارة العيش، وحينذاك فلن يكون هذا الجيل سوى عالة على الدولة وأجن من النسوان، فيستأنس صاحب الدولة للاستظهار بغيره طلبا للمعونة والنجدة.

8. خاتمة:

إذا كان لا بد من أسطر نختتم بها هذه الورقة؛ فلا مناص من التنبيه إلى استحالة تغطية العطاء الرحب لفكر المدرسة الإسلامية بكل ما تستوعبه من أقطاب ضلعوا في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولا ضير من التنويه أيضا إلى ما جادت به قريحتهم في كثير من التخصصات العلمية. حقا؛ إن استظهار نموذج بن خلدون في خضم هذه الأسطر؛ ما هو إلا قبس من ذلكم المشعل المتأجج للفكر الإسلامي الذي ساهم فيه زخم عطاء الفلاسفة والعلماء والمفكرين المنضوين تحت لواء المدرسة الإسلامية الذين أناروا بعطائهم الفكري سواء في علوم الطب أو الفيزياء أو الفلسفة أو الاجتماع أو الاقتصاد وهلم جرا من التنوعات في دروب العلم ومختلف ضروب المعرفة. ولئن تحدثنا عن المدرسة الإسلامية وسيرورتها التاريخية وصولا إلى تصوراتها المنهجية وفق ما يقتضيه ميل كل عالم ومفكر ضمن تخصص ما، فإننا سنكون مضرين حينذاك للإقرار بمدى جدوى تراثهم الفكري الذي بحث في الآداب والاجتماع والفلك والرياضيات والطبيعية والعمارة وهلم جرا من زخم الاجتهادات في نظر علماء الغرب من بعدهم والذين يكونون قد اغترفوا وانتهلوا من رفوف مكتبة المدرسة الإسلامية.

5. قائمة المراجع:

1. توماس، جولدشتاين، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، تر، أحمد حسان عبد الواحد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط4، سنة 2003.
2. حسن، الساعاتي، تصميم البحوث الاجتماعية، نسق منهجي جديد، دار النهضة العربية، لبنان، ط4، 1424هـ 2003م.
3. حسين عناية، غازي، مناهج البحث العلمي في الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ب. ت.
4. سيد إبراهيم، الجيار، دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، القاهرة.
5. علي، الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، دار دجلة والفرات، بيروت، ط2، 2010.
6. علي، سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دب. ت.
7. علي، عبد الفتاح، أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين، الجزء الأول، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ 2010م.
8. محمد إبراهيم، الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، ط1، 1417هـ 1997م.
9. محمد عابد، الجابري، فكر بن خلدون، العصية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1994.
10. محمد عزيز، الجابري، ابن خلدون معاصرا، ترجمة، فاطمة الجامعي الجابري، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984.
11. محمد فاروق، النيهان، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1998.
12. محمد، شفيق، البحث العلمي مع تطبيقات في مجال الدراسات الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2006.
13. محمود، عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1980.
14. مصباح، عامر، علم الاجتماع الرواد والنظريات، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005.

- ¹ حسن، الساعاتي، تصميم البحوث الاجتماعية، نسق منهجي جديد، دار النهضة العربية، لبنان، ط4، 1424هـ 2003م، ص 144.
- ² محمد، شفيق، البحث العلمي مع تطبيقات في مجال الدراسات الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2006، ص 295.
- ³ توماس، جولدشتاين، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، تر، أحمد حسان عبد الواحد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط4، سنة 2003، ص 132.
- ⁴ حسين عناية، غازي، مناهج البحث العلمي في الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ب.ت، ص 69.
- ⁵ بتصرف، علي، عبد الفتاح، أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين، الجزء الأول، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 1253.
- ⁶ للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب علي عبد الفتاح، أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين، ج1، الصفحة 1253.
- ⁷ محمد إبراهيم، الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1417هـ 1997م، ص 296.
- علي، عبد الفتاح، سبق ذكره، ص 531⁸.
- ⁹ للاستزادة يمكن الرجوع إلى علي عبد الفتاح، سبق ذكره، ص 641.
- ¹⁰ علي، سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ت، ص 187.
- ¹¹ للاطلاع على هذه المؤلفات يمكن الرجوع إلى: علي، سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص 187.
- ¹² حسين عناية، غازي، سبق ذكره، ص 67.
- ¹³ علي، عبد الفتاح، سبق ذكره، ص 505.
- يمكن الاطلاع على أهم هذه المؤلفات في كتاب علي، عبد الفتاح، سبق ذكره، ص 688¹⁴.
- ¹⁵ محمد عابد، الجابري، فكر بن خلدون، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 6، 1994، ص 38.
- ¹⁶ سفره أو رحلته، أو هجرته.
- ¹⁷ إقامته أو استقراره.
- ¹⁸ للاستزادة يمكن الرجوع إلى المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، سبق ذكره، ص 16-27.
- ¹⁹ محمود، عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، تونس، ط 2، 1980، ص 77.
- ²⁰ محمد عزيز، الحباني، ابن خلدون معاصراً، ترجمة، فاطمة الجامعي الحباني، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص 34.
- ²¹ سيد إبراهيم، الجيار، دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، القاهرة، 1974، ص 14.

²² على، الوردى، منطق ابن خلدون فى ضوء حضارته وشخصيته، دار دجلة والفرات، بيروت، ط 2، 2010، ص80.

²³ مصباح، عامر، علم الاجتماع الرواد والنظريات، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2005، ص. ص 28-29.

²⁴ محمد فاروق، النيهان، الفكر الخلدونى من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1998، ص 156.

²⁵ سورة الأنفال، الآية: 15.

سورة المائدة، الآية: 26. ²⁶

الأنفة والإباء ²⁷

ضيق واشتداد ²⁸

29 سورة: حدة